تفسير ابن كثير

هذا توبيخ من ﷺ وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذوا عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره فإذا أرسله ﷺ تابعوه فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخره بالدون الطفيف والخط الدنيوي السخيف فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكتهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسالكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئا فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [من سئل عن علم فكنمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار] وقوله تعالى : { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا } يعني بذلك المرئين المتكثرين بما لم يعطوا كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم [من ادعى دعوة كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة] وفي الصحيح أيضا [المتشعب بما لم يعط كلابس ثوبي زور] وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن مروان قال : اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرء منا فرح بما أتى وأحب أن يحمده بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون فقال ابن عباس : وما لكم وهذه إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس { وإذ أخذوا ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا } الآية وقال ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكنتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه وهكذا رواه البخاري في التفسير و مسلم والترمذي والنسائي في تفسيريهما و ابن أبي حاتم وابن جرير والحاكم في مستدركه و ابن مردويه كلهم من حديث عبد الملك بن جريج بنحوه ورواه البخاري أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن علقمة بن وقاص أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فذكره وقال البخاري : حدثنا سعيد بن أبي مریم أنبأنا محمد بن جعفر حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري هـ : أن رجلا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم

يفعلوا فنزلت { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا } الآية وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم بنحوه وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث الليث بن سعد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال : كان أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت عند مروان فقال : يا أبا سعيد رأيت قوله تعالى : { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا } ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذلك إنما ذلك أن ناسا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ فقال مروان : أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم صدق أبو سعيد ثم قال أبو سعيد : وهذا يعلم ذلك - يعني رافع بن خديج ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدي علي ما شهدت لك فقال أبو سعيد : شهدت الحق فقال زيد : أولا تحمدي علي ما شهدت الحق ؟ ثم رواه من حديث مالك عن زيد بن أسلم عن رافع بن خديج : أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم وهو أمير المدينة فقال مروان : يا رافع في أي شيء نزلت هذه الآية ؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد بهم وكان مروان يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم فقال له ما ذكرناه ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء لأن الآية عامة في جميع ما ذكرناه وأعلم وقد روى ابن مردويه أيضا من حديث محمد بن أبي عتيق وموسى بن عقبة عن الزهري عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال : [يا رسول الله] لقد خشيت أن أكون هلكت قال لم ؟ قال نهى الله المرء أن يحب أن يحمده بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهوري الصوت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ فقال : بلى يا رسول الله فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب [وقوله تعالى : { فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب } يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد وبالياء على الإخبار عنهم أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه ولهذا قال تعالى : { ولهم عذاب أليم } ثم قال تعالى { والله السماوات والأرض والله على كل شيء قدير } أي هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء فهابوه ولا تخالفوه واحذورا غضبه ونقمته فإنه العظيم الذي لا أعظم منه والقدير الذي لا أقدر منه